الفصل الثاني
نعمة العبادات

* نعمة الوضوء والصلاة
* نعمة الزكاة
* نعمة الصيام
* نعمة الحج
* نعمة الدعاء

نعمة الوضوء والصلاة

كلّ الفرائض والعبادات نزلت من السماء إلى الأرض، بوحي من الله عز وجل على رسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم إلّا الصلاة، فقد فرضها الله على النبيّ في معراجه إلى السماء؛ وذلك إعلاء لقدر الصلاة وأهمّيّتها في حياة المسلم. فهي عماد الدين، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين. ولذلك أيضًا، لم يكن في ترك الصلاة رخصة أو عذر مهما اشتدّ بالإنسان المرض، أو طال به السفر أو شقّ عليه. فالمسافر يجمع ويقصر ولا يترك.

كما يستطيع المريض أن يصلّي قائمًا أو قاعدًا أو نائمًا، حتى أنّه يستطيع الإيماء بعينيه ولا يترك الصلاة. وهي ذات فضل مضاعف في المسجد في جماعة، وتجوز في البيت والمتجر وعلى الطريق، وفي أيّ مكان تحضر الصلاة؛ فلا بدّ من إقامتها في وقتها: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقد سمّيت صلاةً، لأنّها صلة العبد بربّه وخالقه، وبها يصل العبد إلى الجنّة؛ كما روي عن علي رضي الله عنه أنّه قال: «هل ترون لِمَ سمّيت الصلاة صلاة؟ قالوا: لا يا أمير المؤمنين. قال: لأنّ العبد يصل بها إلى الجنّة»[1]. فإذا توضّأ المسلم لصلاته ودخل بها. فهو يقف بين يدي ربّه، ويركع ويسجد له، يقرأ بفاتحة الكتاب وأوّلها: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١ ﴾ أي أنّ بدايتها الحمد لله على نعمه الوافرة، التي لا عدّ لها ولا حصر، ولا إحاطة بها ولا وصف، فالحمد لله على ما أدركْنا منها (أي من نِعَمِ الله) وما لم ندرك. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين. ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ ﴾. قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾. قال: مجدني (وقال مرَّة: فوَّض إليَّ عبدي). فإذا

---

(١) الصلاة في الإسلام. عبد الله سراج الدين الحسيني. مؤسسة الشام للطباعة والتجليد، ط٥، ٢٠٠٦.

قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾. قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾. قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل [١]. لذلك عندما يدخل العبد في صلاته موقنًا بأنّه بين يدي ربّه السميع القريب المجيب، مستشعرًا لهذه العلاقة الخالصة بينه وبين ربّه، خاشعًا موقنًا بما يقول، فإنّ صلاته ستكون راحة وسكينة له، كما كان النبيّ عليه الصلاة والسلام يقول لمؤذّنه بلال أحيانًا: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها» [٢]. «فالصلاة حقًّا فيض من السكينة، ونهر من الأمن، وريح طيّبة باردة تهبّ على النفس، فتطفئ نار الخوف والحزن» كما يقول أحد الأدباء.

بعد هذا الحوار بين العبد وربّه، يتابع المسلم صلاته وقراءته بما تيسّر له من آيات الله البيّنات، حتى إذا ركع وقال سبحان ربّي العظيم ثلاثًا، واستشعر معنى الركوع بما فيه من خضوع لعظمة الخالق واطمأنّ بذلك، قام من ركوعه وقال: «سمع الله لمن حمده»، وردّت الملائكة من خلفه وضجّت السماء بمن فيها وقالوا معه: «ربّنا لك الحمد»، كان ذلك تأكيدًا وتثبيتًا بأنّ الله هو السميع العليم، فهو يسمع من عبده قوله «سمع الله لمن حمده»، ويثني على ذلك بملائكة قدسه فيؤكّد الجميع أنّ الحمد لله ملء السماوات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، وله الحمد حتى يرضى، وله الحمد إذا رضي، وله الحمد بعد الرضا.

حتى إذا سجد، والتصقت جبهته بالأرض، واطمأنّ ساجدًا، كان أقرب ما يكون إلى ربّه، حسب ما ورد في الآية الكريمة من سورة العلق: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ،

---

(١) مسلم الصحيح، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، ح (٤٨٢/٢١٥)، ١/ ٣٥٠.

(٢) أبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، ح(٤٩٨٦)، ص٧٨٠.

وحسب ما ورد في الحديث الشريف: «أقرب ما يكون العبد إلى ربّه وهو ساجد» [١]. وله بعد أن يسبّح الله ثلاثًا، أن يدعو بما شاء من الخير، فهو أقرب ما يكون إلى ربّه، يسمع نجواه ويستجيب دعاءه. وقد روي عن عبّادة بن الصامت رضي الله عنه أنّه سمع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «ما من عبد يسجد لله سجدة إلّا كتب الله له بها حسنة، ومحا عنه بها سيّئة، ورفع له بها درجة، فاستكثروا من السجود» [٢].

لذلك كلّه، كانت الصلاة المفروضة في اليوم خمس مرات، وكما يقول الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «أرأيتم لو أنّ نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كلّ يوم خمسًا ما تقول ذلك يبقي من دَرَنِهِ؟ قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا» [٣]، وقد شبّه الرسول عليه الصلاة والسلام الصلاة باغتسال الرجل الذي يكدّ ويعرق طوال نهاره، وقد أخذ التعب منه كلّ مأخذ، فتراه يغتسل من وقت لآخر ليضع عنه أوساخه فيخرج من مغتسله نظيفًا، نشيطًا، رحب الصدر، مقبلًا على إخوانه، وعلى عمله بنفس راضية. كذلك الصلاة، ففيها راحة للمؤمن، ورضا من ربّه، وطهور من خطاياه وعثراته، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ **[العنكبوت: ٤٥]**، وكذلك قيل: يا رسول الله إنّ فلانًا يصلّي الليل كلّه فإذا أصبح سرق قال: «سينهاه ما يقول».

قال أبو حاتم: أراد صلّى الله عليه وسلّم أنّ الصلاة إذا كانت على الحقيقة في

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة فاتحة الكتاب، ح (٢٩٥٣)، ٢٠١/٥ [قال الترمذي: حديث حسن].

(٢) ابن ماجه، السنن، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في كثرة السجود، ح (١٤٢٤)، ٤٥٧/١.

(٣) - البخاري، الصحيح، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة، ح (٤٩٧)، ١/ ٢٨٢ [واللفظ له].

- مسلم، الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات، ح (٦٦٧/٢٨٣)، ٤٦٢/١.

الابتداء والانتهاء يكون المصلّي مجانبًا للمحظورات معها كقوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [١].

ولا بدّ للدخول في الصلاة من الوضوء، والوضوء بذاته نعمة من الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إن أمتي يُدعَون يوم القيامة غُرًّ محجّلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل» [٢].

وعنه أيضًا أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إذا توضّأ العبد المسلم - أو المؤمن - فغسل وجهه خرج من وجهه كلّ خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كلّ خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كلّ خطيئة مشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء حتى يخرج نقيًا من الذنوب» [٣]. وعنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره (أي إكمال الوضوء وإتمامه رغم شدة البرد أو أي مكروه آخر)، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط» [٤].

وقد حثّ الإسلام على صلاة الجماعة، وخصوصًا في المساجد، لما فيها من حرص على الأداء في وقتها، ولما فيها من تواصل وتقارب بين المسلمين وتراحم

---

(١) ابن بلبان، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الصلاة، باب النوافل، ح (٢٥٥١)، ٤/ ١١٦.

(٢) البخاري، الصحيح، كتاب الوضوء، باب فضل الوضوء والغر المحجلون من آثار الوضوء، ح (١٣٣)، ١/ ١٣١.

(٣) مسلم، الصحيح، كتاب الطهارة، باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء، ح (٢٤٤/٣٢)، ١/ ٢١٥.

(٤) مسلم، الصحيح، كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، ح (٢٥١/٤١)، ١/ ٢١٩.

في ما بينهم. فيقفون جميعًا في صفوف منتظمة لا فرق بين غنيّهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، وقد وجّهوا وجوههم جميعًا نحو قبلة واحدة وخلف إمام واحد.

وفي ذلك تتجلّى روح الجماعة في الإسلام، وقوّتها وانضباطها وتماسكها، وقد حضّ عليها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في أحاديث كثيرة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «صلاة الرجل في جماعة تُضَعَّفُ على صلاته في بيته وفي سوقه خمسة وعشرين ضعفًا، وذلك أنّه إذا توضّأ فأحسن الوضوء ثمّ خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلّا الصلاة لم يخطُ خطوة إلّا رفعت له بها درجة، وحطّت عنه بها خطيئة، فإذا صلّى لم تزل الملائكة تصلي عليه، ما دام في مصلّاه ما لم يُحْدث، تقول: اللهم صلّ عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال أحدكم في صلاته ما انتظر الصلاة»[1].

وقد فرضت الصلاة في معراج النبيّ إلى السماء بداية خمسين صلاة في اليوم والليلة، وبعد أن تمّ تخفيض العدد إلى خمس صلوات مفروضة في اليوم والليلة؛ جعل الله ثواب الصلوات الخمس يعادل ثواب الخمسين إذا أحسن العبد أداءها وخشوعها. كما جعل الله لكلّ صلاة منها وقتها المحدّد وثوابها الكبير، وذلك كلّه فضل من الله ومنّة.

والدعوة إلى الصلوات المفروضة تكون بالأذان، وقد أعطى الله الأجر الكبير للمؤذّن. والمؤذّنون، كما أخبر النبيّ عليه الصلاة والسلام، هم أطول الناس أعناقًا يوم القيامة بكثرة الثواب. وقد ورد أنّ المؤذّن يغفر له مدى صوته، ويصدقه كلّ رطب ويابس. وكيف لا؟ وهو الذي يردّد كلمة التوحيد، وتتجاوب مع صوته قلوب المؤمنين، مستجيبة لنداء ربّها، ومقيمة للصلوات المفروضة عليها. كما جعل الإسلام لمن يردّد مع المؤذّن أيضًا، أجرًا كبيرًا وفضلًا عظيمًا. فعن عبدالله بن عمرو بن العاص أنّه سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقول، ثمّ صلوا علي، فإنّه من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه بها

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الاذان، باب فضل صلاة الجماعة، ح (٦١٢)، ١/٣١٩.

عشرًا، ثمّ سلوا الله لي الوسيلة، فإنّها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلّا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»[١].

وقد جاء في مسند أحمد في ما يرويه أبو عبد الله بن زيد قال: «لمّا أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالناقوس يعمل ليضرب به للناس لجمع الصلاة، طاف بي وأنا نائم رجل يحمل ناقوسًا في يده، فقلت: يا عبد الله أتبيع الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: فقلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلّك على ما هو خير من ذلك. قال: فقلت له: بلى، قال: تقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أن محمّدًا رسول الله، أشهد أن محمّدًا رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، حيّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله، قال: ثمّ استأخر عنّي غير بعيد. ثمّ قال: تقول إذا أقمت الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلّا الله، أشهد أنّ محمّدًا رسول الله، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله. فلما أصبحت أتيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبرته بما رأيت، فقال: إنّها لرؤيا حقّ إن شاء الله، فقم مع بلال، فألقِ عليه ما رأيتَ، فليؤذّن به، فإنّه أندى صوتًا منك، قال: فقمتُ مع بلال، فجعلت ألقيه عليه ويؤذّن به. قال: فسمع ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو في بيته، فخرج يجرّ رداءه وهو يقول: والذي بعثك بالحق يا رسول الله لقد رأيتُ مثل ما رأى، قال: فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فلله الحمد»[٢].

ولذلك فلما كانت الصلاة أمرًا من الله عزّ وجلّ للنبيّ عليه الصلاة والسلام وهو في معراجه في السماء، فإنّ تفاصيلها وحركاتها وركعاتها جاءت بتوضيح من النبيّ محمّد عليه الصلاة والسلام وهو القائل في الحديث الشريف: «صلّوا كما

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثمّ يصلّي على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثمّ يسأل الله له الوسيلة، ح (٣٨٤/١١)، ٢٨٨/١.

(٢) أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب كيف الاذان، ح (٤٩٩)، ص ٩٢.

رأيتموني أصلّي»[١]. أمّا الدعوة إليها بالأذان فكانت بواسطة الصحابة الكرام بما أراهم الله في المنام، وما ذلك إلّا بتقدير ووحي من ربّ العالمين؛ حتى تكون الصلاة أمرًا جامعًا في شرعها من الله تعالى، وكيفيّة أدائها من الرسول الكريم والدعوة إليها من أئمّة المسلمين.

وبالإضافة إلى الصلوات المفروضة، فلقد سنّ لنا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم صلوات السنن مع كلّ وقت وذلك تقرّبًا إلى الله تعالى، وجعل لها أجرًا كبيرًا وثوابًا عظيمًا فقد قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «ما من عبد مسلم يصلّي لله كلّ يوم اثنتي عشرة ركعة تطوّعًا غير فريضة إلّا بنى الله له بيتًا في الجنّة»[٢]، وهذه السنن هي: ركعتان قبل صلاة الفجر، وأربع ركعات قبل صلاة الظهر وركعتان بعدها، وركعتان بعد صلاة المغرب وركعتان بعد صلاة العشاء. أمّا بيت الجنّة فقد أخبرنا عنه النبيّ عليه الصلاة والسلام: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضّة، وبلاطها من المسك والأذخر، وحصباؤها اللؤلؤ أو الياقوت وترابها من الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبؤس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه»[٣]. وفي الجنّة غرف من أصناف الجواهر كلّه، يرى ظاهرها، من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من النعم واللذّات «ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[٤].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «صلاتان ما تركهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في بيتي قطّ، سرًّا ولا علانيّة، ركعتين قبل الفجر وركعتين بعد العصر»[٥]،

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة، ح (٥٩٤)، ١/ ٣١٣.

(٢) مسلم، الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن، ح (٧٢٨/١٠٣)، ١/ ٥٠٣.

(٣) ابن بلبان، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب أخباره صلّى الله عليه وسلّم، باب وصف الجنّة وأهلها، ح(٧٣٤٤)، ٩/ ٢٤١.

(٤) مسلم، الصحيح، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، ح (٢٨٢٤/٢)، ٤/ ٢١٧٤.

(٥) مسلم، الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب معرفة الركعتين كان يصلّيهما النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعد العصر، ح (٨٣٥/٣٠٠)، ١/ ٥٧٢.

(أي ما يرغب في الخيرات والثواب).

وعن أمّ حبيبة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «من حافظ على أربع ركعات قبل الظهر وأربع بعدها: حرّمه الله على النار»[١].

وقد روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «رحم الله امرأً صلّى قبل العصر أربعًا»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من صلّى بعد المغرب ستّ ركعات، لم يتكلّم في ما بينهن بسوء: عُدِلْنَ له بعبادة ثنتي عشرة سنة»[٣].

وروى الطبراني عن البراء رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «من صلّى قبل الظهر أربعًا وبعدها أربعًا، حرّمه الله على النار»[٤].

كما فرض الله تعالى صلاة الجمعة وقت الظهر من يوم الجمعة، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ ﴾ [الجمعة: ٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من توضّأ فأحسن الوضوء ثمّ أتى الجمعة فاستمع وأنصت: غفر له ما بينه وبين الجمعة، وزيادة ثلاثة أيام، ومن مسّ الحصى فقد لغا»[٥].

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، أبواب الصلاة، ح (٤٢٨)، ٢/٢٩٣ [قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه].

(٢) الترمذي، الجامع الصحيح، أبواب الصلاة، ح (٤٣٠)، ٢/٢٩٦ [قال الترمذي: حديث غريب حسن].

(٣) الترمذي، الجامع الصحيح، أبواب الصلاة، ح (٤٣٥)، ٢/٢٩٩ [قال الترمذي: حديث غريب].

(٤) ابن حبان الصحيح، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن صلّى قبل الظهر أربعًا وبعدها أربعًا، ح /١١٦٠)، ص ٣٦٧.

(٥) مسلم، الصحيح، كتاب الجمعة، باب فضل من استمع وأنصت يوم الجمعة، ح (٨٥٧/٢٧)، ٢/٥٨٨.

وفي الجمعة ساعة إجابة فقد روى الترمذي وابن ماجه، عن عمرو بن عوف رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إن في الجمعة ساعة لا يَسألُ اللهَ العبدُ فيها شيئًا إلّا آتاه الله إياه» قالوا يا رسول الله: أيّ ساعة هي؟ قال: «حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها»[١].

كما أمرنا النبيّ عليه الصلاة والسلام بصلاة الوتر في آخر اليوم، فعن علي رضي الله عنه قال: «الوتر ليس بحتم كهيئة الصلاة المكتوبة»[٢]، ولكن سنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلاة الوتر فقال: «إنّ الله وتر يحبّ الوتر، فأوتروا يا أهل القرآن»[٣].

كذلك فقد أنعم الله علينا بصلوات كثيرة، سوى الفرائض وسننها، ومنها:

- **صلاة الضحى**: فقد روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من حافظ على شُفْعَةِ الضحى (أي ركعتي الضحى)، غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر». كما روى الإمام أحمد عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: قال الله عز وجل: «يا ابن آدم صلّ لي أربع ركعات أول النهار أكفك آخره»[٤].
- **قيام الليل**: فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أفضل الصيام بعد رمضان، شهر الله المحرَّم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[٥]. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، أبواب الجمعة، باب ما جاء في الساعة التي ترجى في يوم الجمعة، ح (٤٩٠)، ٢/٣٦١ [قال الترمذي: حديث حسن غريب].

(٢) الترمذي، الجامع الصحيح، أبواب الوتر، باب ما جاء أن الوتر ليس بحتم، ح (٤٥٤)، ٢/ ٣١٦.

(٣) الترمذي، الجامع الصحيح، أبواب الوتر، باب ما جاء أو الوتر ليس بحتم، ح (٤٥٣)، ٢/٣١٦ [قال الترمذي: حديث حسن].

(٤) ابن بلبان، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، كتاب الصلاة، باب النوافل، ح (٢٥٢٥)، ٤/ ١٠٤.

(٥) مسلم، الصحيح، كتاب الصيام، باب فضل صوم المحرم، ح (١١٦٣/٢٠٢)، ٢/٨٢١.

عنها قالت: «إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه (أي تتشقّق وتتورم)، فقلت له: لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر؟ قال: «أفلا أحبّ أن أكون عبدًا شكورا»[١]. كما روى الطبراني بإسناد حسن عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وقال: «يا محمّد عش ما شئت فإنّك ميت، واعمل ما شئت فإنك مَجزيٌّ به، ثمّ قال: يا محمّد، شرف المؤمن قيام الليل، وعزّه استغناؤه عن الناس»[٢].

– **صلاة الاستخارة:** فقد روى سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «من سعادة ابن آدم استخارته الله، ومن سعادة ابن آدم رضاه بما قضاه الله، ومن شقوة ابن آدم تركه استخارة الله، ومن شقوة ابن آدم سخطه بما قضى الله عزّ وجلّ»[٣]. ودعاء الاستخارة بعد صلاة ركعتين من غير الفريضة: «اللهمّ إنّي أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علّام الغيوب. اللهمّ إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال في عاجل أمري وآجله) فاقدره لي ويسّره لي ثمّ بارك لي فيه. وإن كنت تعلم أنّ هذا الأمر شرّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري (أو قال عاجل أمري وآجله)، فاصرفه عنّي واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثمّ أرضني به، قال ويسمّي حاجته»[٤].

– **صلاة الحاجة:** وتندب لمن كانت له حاجة مشروعة، وكيفيّتُها أن يصلّي

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب التفسير، باب قوله "ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا" ح (١٢٦٣)، ٦/٥١٠.

(٢) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق، ح (٧٩٢١/٧٨)، ٤/٣٦٠.

(٣) أحمد، المسند، مسند أبي اسحق، سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ح(١٤٤٧).

(٤) البخاري، الصحيح، كتاب التهجد بالليل، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، ح (١٠٨٤)، ٢/ ٥٠٢.

ركعتين كما ورد في قوله صلّى الله عليه وسلّم: «من كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ فليحسن الوضوء ثمّ ليصلِّ ركعتين، ثمّ ليثنِ على الله وليُصَلِّ على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ثمّ ليقل: لا إله إلّا الله الحليم الكريم، سبحان الله ربّ العرش العظيم. الحمد لله ربّ العالمين، أسالك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كلّ برّ، والسلامة من كلّ إثم، لا تدع لي ذنبًا إلّا غفرته، ولا همًّا إلّا فرّجته، ولا حاجة هي لك رضا إلّا قضيتها يا أرحم الراحمين»[١].

- **صلاة التسبيح وأذكارها**: عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للعباس رضي الله عنه: «يا عباس يا عمّاه، ألا أعطيك، ألا أمنحك، ألا أحبوك، ألا أفعل بك عشر خصال، إذا أنت فعلت ذلك: غفر الله لك ذنبك أوَّله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، صغيره وكبيره، سرَّه وعلانيته، عشر خصال: أن تصلّي أربع ركعات تقرأ في كلّ ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم قلت: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، خمس عشرة مرة، ثمّ تركع فتقولها وأنت راكع عشرًا، - أي: بعد تسبيحات الركوع - ثمّ ترفع رأسك فتقولها عشرًا، ثمّ تهوي ساجدًا فتقولها وأنت ساجد عشرًا، - أي: بعد تسبيحات السجود - ثمّ ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرًا، ثمّ تسجد فتقولها عشرًا، ثمّ ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرًا، فذلك خمس وسبعون في كلّ ركعة، تفعل ذلك في أربع ركعات.

إن استطعت أن تصلّيها في كلّ يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففي كلّ جمعة مرّة، فإن لم تفعل ففي كلّ شهر مرة، فإن لم تفعل ففي كلّ سنة مرّة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرّة»[٢].

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، أبواب الصلاة وباب ما جاء في صلاة الحاجة، ح (٤٧٩)، ٢/٣٤٤ [قال الترمذي: حديث غريب وفي إسناده مقال].

(٢) أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب صلاة التسبيح، ح (١٢٩٧)، ص ٢١٢ [واللفظ له].

وقد روي هذا الحديث بروايات مختلفة وأسانيد متعدّدة يقوّي بعضها بعضًا، ولذلك قال بعض المحقّقين: لا يسمع بعظيم فضلها ويتركها إلّا متهاون بالدين [١].

قيل لابن عباس رضي الله عنهما: هل تعلم لهذه الصلاة سورة؟ - أي تستحبّ قراءتها فيها - فقال: التكاثر، العصر، الكافرون، والإخلاص.

- **صلاة التوبة من الذنب:** روى أصحاب السنن، عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «ما من رجل يذنب ذنبًا ثمّ يقوم فيتطهّر، ثمّ يصلّي - وفي رواية البيهقي «ركعتين» - ثمّ يستغفر الله إلّا غفر الله له» [٢]، ثمّ قرأ هذه الآية: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾** ﴾ **[آل عمران: ١٣٥].**

وينبغي أن يتحقّق مع الاستغفار من شروط التوبة: الندم على ما فعله، والإقلاع عنه، والعزم ألّا يعود إلى مثله إن كانت المعصية في حقّ الله، أمّا إن كانت في حق العبد فلا بدّ من ردّ الحق إليه، أو طلب السماح منه: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ **[الزمر: ٥٣].**

- **صلاة العيدين:** سنّهما لنا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، في عيد الفطر وعيد الأضحى لما فيهما من اجتماع للمسلمين وتكبير وفرح وبهجة بالمغفرة سواء لصوم رمضان أو لأداء الحجّ... فقد روى الطبراني عن سعد بن أوس الأنصاري عن أبيه رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إذا كان يوم عيد الفطر، وقفت الملائكة على أبواب الطرق فنادوا: اغدوا يا

(١) الصلاة في الإسلام. عبد الله سراج الدين الحسيني. مؤسسة الشام للطباعة والتجليد، ط٥، ٢٠٠٦.

(٢) الترمذي، الجامع الصحيح، أبواب الصلاة، باب ما جاء في الصلاة عند التوبة، ح (٤٠٦)، ٢/ ٢٥٨ [قال الترمذي: حديث حسن].

معشر المسلمين إلى ربّ كريم، يمنّ بالخير، ثمّ يثيب عليه الجزيل، لقد أمرتم بقيام الليل، فقمتم، وأمرتم بصيام النهار فصمتم، وأطعتم ربكم فاقبضوا جوائزكم، فإذا صلّوا نادى مناد: ألا إنّ ربكم قد غفر لكم، فارجعوا راشدين إلى رحالكم، فهو يوم الجائزة، ويسمّى ذلك اليوم (أي يوم عيد الفطر) في السماء يوم الجائزة»[١].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «من قام ليلتي العيد لله محتسبًا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب»[٢].

– **ركعتا الوضوء:** عن عقبة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: ما من مسلم يتوضّأ فيحسن وضوءه، ثمّ يقوم فيصلّي ركعتين يقبل عليهما بقلبه ووجهه إلّا وجبت له الجنّة»[٣].

– **صلاة الكسوف:** فقد ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «إنّ الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد من الناس، ولكنّهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلّوا»[٤]، وقد شرعها الله لأنّها إشعار بأنّ العالم كلّه في قبضة إله قدير. فالصلاة في هذه الحالة معناها إظهار التذلّل والخضوع لذلك الإله القويّ المتين. وهذا دليل على أنّ الإسلام جاء بالتوحيد الخالص وترك عبادة الأوثان، ومنها الشمس والقمر، وغيرها. ويسنُّ فيها طول القراءة فمثلًا يقرأ في الركعة الأولى سورة البقرة أو نحوها، وفي الركعة الثانية سورة آل عمران أو نحوها. وهذه الإطالة في القراءة مستحبّة، ربّما حتّى ينصرف الناس عن الخروج إلى الشوارع، والنظر المباشر إلى كسوف الشمس، لما فيه من أذًى

(١) الصلاة في الإسلام. عبد الله سراج الدين الحسيني. مؤسسة الشام للطباعة والتجليد، ط٥، ٢٠٠٦.

(٢) البيهقي، السنن الكبرى، كتاب صلاة العيدين، باب عبادة ليلة العيدين، ح (٦٢٩٣)، ٣/٤٤٥.

(٣) مسلم، الصحيح، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، ح (٢٣٤/١٧)، ١/ ٢٠٩.

(٤) البخاري، الصحيح، كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس، ح (٩٧٥)، ٢/٤٦٤.

كبير على البصر والعينين.

وقد حبَّب الله إلينا صلوات أخرى عديدة منها صلاة تحيّة المسجد، عند دخوله، ورد في الصحيحين عن أبي قتادة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلّي ركعتين»[١]. ومنها أيضًا صلاة الاستسقاء، وصلوات الفزع من الزلازل أو الصواعق أو الظلمة الشديدة أو الرياح العاصفة أو الوباء، وكلّ ذلك في سبيل إدخال الطمأنينة إلى من يلجأ إلى ربّه، ويتوكّل عليه، ويفوّض أمره إليه.

والصلاة في حركاتها أيضًا نعمة كبيرة، فالقيام والركوع والجلوس والسجود والتسليم هي أفضل أنواع الرياضة البدنيّة التي تناسب جميع الأعمار، ففي الركوع مثلًا رياضة مناسبة للعمود الفقريّ، وفي الجلوس والقيام رياضة لعضلات اليدين والرجلين. أمّا فوائد السجود فقد ذكر الأطبّاء أنّ الإنسان يتعرّض يوميًّا إلى شحنات كهرومغناطيسيّة من البيئة المحيطة به، هذه الشحنات تتسلّط على الجهاز العصبيّ المركزيّ، وخاصّة في المنطقة الأماميّة من الدماغ، ولذلك يجب التخلّص منها حتى لا تسبب آلامًا وتشنّجات في الرقبة وبعض عضلات الجسم الأخرى. فالسجود يساعد كثيرًا على تفريغ هذه الشحنات من خلال وضع الجبهة على الأرض. كما أنّ للسجود تأثيرًا كبيرًا في مفاصل العمود الفقريّ، وفي عمليّة حركة الدم ورجوعه إلى القلب من جميع مناطق الجسم. كما يساعد السجود على خروج الإفرازات من الجيوب الأنفيّة والوجه. أما التسليم نحو اليمين واليسار، فإنّه أيضًا يعالج التشنّج العضليّ في الرقبة والكتفين، وهو بدوره يساعد على تخفيف علاج صداع الرأس التشنّجي.

ولذلك كلّه كانت نعمة الصلاة نعمة كبيرة لا يدركها إلّا العارفون. فهي صلة العبد بربّه، والمخلوق بخالقه يحمده فيها ويكبّره، ويركع ويسجد له، ويخضع له ويُعَظِّمُه، ويُسَبِّحُ بحمده، ويناجيه ويستغفره، ويتوب إليه ويدعوه،

(١) البخاري، الصحيح، كتاب التهجد بالليل، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى، ح (١٠٨٥)، ٢/ ٥٠٣.

ويطرق بابه من دون استئذان، ويخشع بين يديه بكلّ اطمئنان، وإذا سأله أجابه بكلّ امتنان، وإذا تقرّب إليه قرَّبه بكلّ محبة وحنان، لأنّه هو الله الواحد الأحد الحنّان المنّان.

يقول ابن القيّم الجوزيّة: «الصلاة مجلبة للرزق، حافظة للصحّة، دافعة للأذى، طاردة للأدواء، مقوّية للقلب، مبيّضة للوجه، مفرحة للنفس، مذهبة للكسل، منشّطة للقلب، حافظة للنعمة، دافعة للنقمة، جالبة للبركة، مبعدة للشيطان، مقرّبة من الرحمن».

نعمة الزكاة

الزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي الركن المالي الاجتماعي المباشر، لأنّ علاقته مباشرة بما يملك الإنسان من مال وثروة. وهي نعمة في ذاتها ومضمونها، وتسميتها. ففيها تزّكية للنفس، وسموّ ورقيّ، وغنًى عند الله. وبها ينعم الإنسان بفضل الله ورحمته، ويضاعف له الأجر أضعافًا كثيرة. وبإخراجها ينعم المجتمع، ويتآلف أفراده ويتكافلون ويتكاتفون. والزكاة مطهّرة لصاحبها من خبث البخل وحبّ المال. وفي أدائها شكر لله على نعمة المال، وقد جاء الأمر بها في عدد كبير من الآيات القرآنيّة مقرونة بالصلاة لأهميتها. يقول تعالى: ﴿ **وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ** ﴾ **[النور: ٥٦].**

ومن نعمة الله في الزكاة أن جعلها ركنًا من أركان الإسلام، تجب على من ملك النصاب وفق الشروط التي ذكرها الفقهاء. وبما أنّها كذلك فقد شرع الله فيها مقادير معينة، وتتراوح بين ربع العشر كحد أدنى، والعشر كحد أقصى، حسب نوع المال المزكّى. وقد فصل العلماء ذلك بإسهاب في مختلف كتب الفقه. وفي اختلاف هذه المقادير حكمة ونعمة من الله وفضل كبير. فهي في المال النقديّ قدر، وفي المزروعات قدر، فمنها ما يُسقى بماء الآبار والأنّهار، ومنها ما يسقى بماء المطر؛ والزكاة فيهما مختلفة، وهي في الصناعة قدر وفي عروض التجارة قدر آخر، وهكذا دواليك. ومن الحكمة في هذا الاختلاف الترغيب في إشراك المسلم في مختلف قنوات الاستثمار، وفي ذلك قوّة المجتمع ورخاؤه وحضارته.

ومن نعمة الله في الزكاة أن جعل لها عدّة مصارف في قوله تعالى: ﴿ ۞ **إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾** ﴾ **[التوبة: ٦٠]**، فهي أولًا فريضة من الله، وأوجه صرفها محدودة وهي لا تجوز لغني. يقول رسول الله

صلّى الله عليه وسلّم: «لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مرّة سويّ»[١](والمرّة هي القوة والشدة).

• وأوّل أوجه الصرف: الفقراء والمساكين، ولذلك فالزكاة نظام تكافلي رعائي واجتماعي متكامل، بها تزكو نفس مؤدّيها، ويسدّ الفقير حاجته ويفرّج المسكين كربته.

• كما جعل الله للعاملين عليها نصيبًا منها، وذلك أنّ العمل على جمع الزكوات وإنفاقها مسؤوليّة كبيرة أمام الله وأمانة عظيمة، يجب على الإنسان العامل عليها أن يتجنّب الخطأ والزلل فيها، ويتحرّى في عمله الحلال والحرام، ولذلك كان للعاملين عليها نصيب من الزكاة لقاء تفرّغهم ولعصمتهم عن الوقوع في الحرام.

• أما المؤلّفة قلوبهم، فهم الذين يُعْطَون ليحسن إسلامهم، والنفقة عليهم من مال الزكاة واجبة حتى يكون ذلك ترغيبًا لهم في الدين الإسلامي وإشعارًا لهم بالتكافل الذي حضّ عليه الإسلام وحبّب فيه، وإعانة لهم على الثبات، لأنّهم سيحارَبون من قومهم الذين خرجوا منهم.

• وفي الرقاب، أي الإنفاق من مال الزكاة في محاربة الرقّ والعبوديّة وفي هذا الباب يؤكّد الإسلام أنّه لم يكتف بالدعوة إلى حرّيّة الإنسان بل حضّ على تحرير الأرقّاء، وجعل ذلك من أسس الدين ومبادئه. يقول عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا».

• والغارمون هم المدينون في غير معصية، فقد أباح الإسلام مساعدتهم من مال الزكاة ليوفوا ديونهم بدلًا من إعلان إفلاسهم، وذلك في سبيل مساعدتهم للخروج من الدَّيْن، وفي سبيل التفّريج لكربهم، «من نفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»[٢].

---

(١) أبو داود، السنن، كتاب الزكاة، باب من يعطي من الصدقة وحدّ الغنى، ح (١٦٣٤)، ص ٢٦٧.
(٢) مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والنوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة =

• وفي سبيل الله، وهو باب خاص بالمجاهدين في الأصل، ثمّ وسّعه بعض الفقهاء المعاصرين ليشمل كلّ ما فيه مصلحة لجماعة المسلمين، وإعلاء لشأن الدين، ودعوة إلى الله للناس أجمعين، وقد فصّل العلماء في ذلك تفصيلًا وتبيانًا للنفقة في سبيل الله. جزاهم الله خير الجزاء.

• وابن السبيل، وهو المسافر من بلده في غير معصية، كطالب العلم، المنقطع عن ماله ولو كان غنيًا.

من يتأمّل في أبواب الإنفاق الثمانية المذكورة في الآية الكريمة، يدرك أهميّة كلّ منها في تحقيق التكافل والعدالة الاجتماعيّة في المجتمع الإسلامي، بكلّ ما فيه ومن فيه من المسلمين وغير المسلمين.

تروي كتب التاريخ أنّه في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز كانت تجمع الزكاة من المسلمين فيؤتى بمال الزكاة، فيعطى منها الفقراء والمساكين حتى لا يبقى فقير أو مسكين محتاج، حتى إذا وجدوا أنّه لم يبقَ في المسلمين فقراء، قالوا: جهّزوا الجيش من مال الزكاة، حتى إذا وجدوه جاهزًا، وبقي من مال الزكاة قالوا: سدّوا ديون المسلمين، حتى إذا فعلوا وبقي الكثير قالوا: سدّوا ديون غير المسلمين، فسدّوا وبقي الكثير، فقالوا: زوّجوا الشباب بمال الزكاة، فزوّجوا وبقي الكثير، فقالوا: اشتروا بما تبقى حبوبًا وانثروها على رؤوس الجبال لتأكل الطير من خير المسلمين...

وقد كتب إليه عامله يومًا، بعدما أمره عمر بقضاء دين الغارمين، فيقول: إنّا نجد الرجل له مسكن وخادم وفرس وأثاث في بيته! فأجابه عمر بن عبدالعزيز: لا بدّ للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليها عدوه، وأثاث في بيته، فهو غارم، فاقضوا عنه.

كما حدّث سهيل بن أبي صالح أنّ عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبدالحميد بن عبد الرحمن، وهو بالعراق أن أخرج إليهم أعطياتهم. فكتب إليه

=

القرآن وعلى الذكر، ح (٢٦٩٩/٣٨)، ٢٠٧٤/٤.

عبد الحميد قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقي في بيت المال مال. فكتب إليه انظر من أدان في غير سفه ولا سرف فاقض عنه، فكتب إليه قد قضيت عنهم، وبقي في بيت مال المسلمين مال. فكتب إليه: انظر كلّ بكر له مال فشاء أن تزوّجه فزوّجه وأصدق عنه، فكتب إليه، أنّي قد زوّجت كلّ من وجدت وقد بقي في بيت مال المسلمين مال، فكتب إليه: انظر من كانت عليه جزية (من غير المسلمين) فضعِّفْ عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه فإنّا لا نريدهم لعام أو عامين.

ذلك هو نظام التكافل والعدالة الاجتماعيّة في الإسلام الذي لا يمكن لنظام وضعي أن يرقى إليه في تأميناته الاجتماعيّة مهما بلغت وتطوّرت ونمت. فما تحقّق في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز كان خلال مدة تقارب المئة سنة بعد بدء الدعوة الإسلاميّة.

يقول فلاسفة الاشتراكيّة في الاقتصاد السياسي أنّ مبدأ الاشتراكيّة في العمل هو: «من كلٍّ حسب طاقته، ولكلّ حسب عمله»، وأنّ مبدأ النظام الشيوعي الذي كانوا يحلمون بقيامه ويدعون إليه: «من كلٍّ حسب طاقته، ولكلّ حسب حاجته». وكانوا يرون في تحقيق هذا المبدأ قمّة العدالة الاجتماعيّة، لكنّ الإسلام قد سبقهم إلى العدالة الاجتماعيّة الحقيقيّة، مع إعطاء الإنسان حقّه في الثراء والادّخار إن كان ذلك بطريق مشروع، بما يزيد على أربعة عشر قرنًا، لأنّه غرس في النفس البشريّة الإيمان بالله والعمل بما جاء في الدين الإسلامي من أركان وفرائض، وبما أحلَّه من حلال وحرَّمه من حرام، وبما حثَّ عليه من أخلاق حميدة وسنن مطهّرة، فأخرج الناس من ظلمات الفقر والحاجة والفساد إلى نور العدالة والعلم والعمل، وحقّق التكافل والتضامن بين الجميع.

يقول عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: «إنّ الله فرض على الأغنياء، في أموالهم، بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا أو جهدوا، فبمنع الأغنياء عنهم».

نعمة الصيام

فرض الله علينا الصيام في شهر رمضان من كلّ عام، وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣] أي أنّ الهدف من الصيام هو تقوى الله.

وفي الصوم جهاد كبير، وهو كما يسمّيه العلماء، الجهاد الأكبر - جهاد النفس.

فالصيام كما فرضه الله ليس فقط امتناعًا عن الأكل والشرب من الفجر إلى الغروب. بل هو أيضًا صوم الجوارح عن كلّ ما نهانا الله عنه، وكما يقول النبيّ محمّد عليه الصلاة والسلام: «إذا أصبح أحدكم يومًا صائمًا، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل إني صائم إني صائم»[(١)].

وهو من ثمّ، تهذيب للنفس وتعويد لها على ترك المنكرات والتمسك بأخلاق الإسلام الفاضلة.

ولقد أكرمنا الله بهذا الشهر الكريم مرّة في كلّ عام وخصّه بالرحمة والمغفرة والعتق من النار كما ورد في الحديث: «شهر أوّله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار»[(٢)]، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام: «وتصفّد فيه الشياطين»[(٣)] أي تكبّل بالسلاسل، وكلّ ذلك تيسير من الله عزّ وجلّ لعباده، ونعمة منه وفضل، حتى يُقْبِلوا في هذا الشهر الكريم على الطاعات وترك المعاصي ويُعَوِّدوا أنفسهم على ذلك. وكان السلف الصالح يدعون الله ستّة أشهر أن يبلّغهم رمضان وستّة أشهر أن يتقبّله منهم، لما فيه من الخير الكثير، فالحسنة فيه بعشرة أمثالها. ولذلك

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم، ح (١١٥١/١٦٠)، ٢/٨٠٦.

(٢) ابن خزيمة، الصحيح، كتاب الصيام، باب فضائل شهر رمضان إن صح الخبر، ح (١٨٨٧)، ٣/ ١٩١.

(٣) أحمد، المسند، حديث رجل من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، ح (٢٢٩٨٠).
البيهقي، شعب الإيمان، الباب الثالث والعشرون من شعب الإيمان وهو باب الصيام، فضائل شهر رمضان، ح (٣٦٠١ و ٣٦٠٢).

فهو شهر يحبّ الناس فيه إنفاق المال من زكوات وصدقات.

وهو شهر القرآن، فيه نزل وفيه كان جبريل عليه السلام يراجعه مع النبيّ محمّد عليه الصلاة والسلام مرّة كاملة في كلّ عام، إلّا في السنة التي انتقل فيها الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، فراجعه معه مرّتين؛ ولذلك ترى المسلمين يحبّون فيه ختم القرآن.

وهو أيضًا شهر إطعام المساكين خصوصًا والصائمين عمومًا، «من فطّر صائمًا كان له مثل أجره غير أنّه لا يَنْقُص من أجر الصائم شيئًا»[1]، ولذلك ترى المسلمين في رمضان يسارعون في دعوة الصائمين إلى الإفطار ولو على تمرة أو مذقة لبن.

كما أنّه شهر يحبّ المسلمون فيه القيام بالعمرة، لأنّها تعدل ثواب حجّة مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وخصوصًا في العشر الأخير من رمضان، كما يزورون قبر النبيّ عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة. وترى الزحام الشديد في الحرمين المكّي والمدني خلال رمضان بما يعادل زحامهم في فترة الحجّ من كلّ عام، وربما أكثر.

ليس هذا فحسب، فإن للصوم فوائد صحّيّة كثيرة، تحدّث عنها الأطباء كثيرًا ومنهم من قارنها بأنظمة الصيام أو التجويع الطبّي المختلفة، المقصود منها معالجة مختلف أنواع الحالات الصحّيّة عند المريض، فوجدوا في الصيام الإسلاميّ فوائد صحّيّة تنطبق على عموم الناس وتراعي حالاتهم الصحّيّة، ومنها:

- إراحة الجسم من هضم الغذاء، وإتاحة الفرصة لاستهلاك المدّخر منه، وطرح السموم المتراكمة، من دون مشقة أو عنت للجسم.
- التوازن القائم بين دورتي البناء والهدم، بتناول وجبات الفطور والسحور والامتناع عن ذلك أثناء النهار، ممّا يساعد على التجديد السريع للخلايا

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب الصوم، باب ما جاء في فضل من فطر صائمًا، ح (٨٠٧)، ١٧١/٣ [قال الترمذي: حديث حسن صحيح].

ومكوّناتها، وتوفير القدر اللازم منها لإنتاج جلوكوز الدم أثناء النهار وتوفير الأحماض الأمينيّة الحرّة في بلازما الدم.

– تخلص الجسم من الدهون بطريقة طبيعيّة آمنة، دون حدوث تشمع الكبد كما في التجويع الطبّيّ، كما تنشط عمليّات الكبد الحيويّة، فيقوم بتصنيع البروتين والموادّ الدهنيّة الفوسفوريّة (كما ورد في مجلة التقوى عدد ١٣٩ عام ٢٠٠٢ في مقالة للدكتور خالد النجّار).

ولذلك قيل: «صوموا تصحّوا».

والصيام ليس إمساكًا عن الطعام والشراب فحسب من الفجر إلى غروب الشمس. بل هو أيضًا تعويدُ النفسِ الامتناع عن المحرمات، ومنها صيام البطن عن أكل المال الحرام وعن أكل الربا، وعن أكل أموال اليتامى بالباطل، وعن أكل الرشوة وما إلى ذلك. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠]، ويقول عزّ وجلّ: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٨].

ويقول أيضًا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

والصيام كذلك صيام اللسان عن الكذب والغيبة والنميمة، وعن شهادة الزور، وعن السخرية، وعن السَّب والفحش واللمز، وما إلى ذلك. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ ﴾ [الحجرات: ١١].

ويقول تعالى أيضًا: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

ويقول أيضًا: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ [الهمزة: ١].

والصيام كذلك صيام العين، بغضّ البصر عن النظر إلى حرام ومنه عورات الناس، فقد قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

والصيام كذلك صيام الأذن عن كلّ ما يثير غضب الله وسخطه، من الكفر والفحش والبذاءة وسماع الخنا والغناء الماجن، يقول تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠].

وفي آية أخرى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ولذلك كلّه، كان صوم رمضان، نعمة كبيرة من الله، أنعم الله بها علينا وشجّعنا عليها حتى نُقبل على رمضان بنفوس مشتاقة إليه، وألسنة تلهج بالدعاء أن يبلّغنا رمضان.

كما أنّه فرصة كبيرة لنا لتعويد النفوس على مختلف الطاعات التي أمرنا بها الإسلام وحضّنا عليها. لذلك كلّه ورد في الحديث القدسيّ: «كلّ عمل ابن آدم له إلّا الصوم فإنّه لي وأنا أجزي به»[1].

كما شرّع الله صيام النافلة، كصيام التاسع والعاشر من شهر محرّم، وصيام يوم عرفة لغير الحجّاج، وصيام ستّة أيام من شوال، وصيام الأيّام البيض من كلّ شهر: أي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من الشهر القمريّ، وكذلك صيام يومي الإثنين والخميس من كلّ أسبوع.

---

(١) البخاري، الصحيح، كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك، ح (٨١٢)، ٣٠٢/٧ [واللفظ له]. مسلم، الصحيح، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، ح (١١٥١/١٦١)، ٨٠٦/٢.

نعمة الحج

فرض الله الحجّ مرّة في العمر لمن استطاع إليه سبيلًا، ومن كفر فإنّ الله غنيّ عن العالمين. وفي الحجّ دروس وعبر كثيرة جدًا، على المستطيع أن يستشعرها ولو مرّة واحدة في عمره. وشرط الاستطاعة بحدّ ذاته نعمة ربّانيّة، ذلك أنّ الحجّ يتطلّب جهدًا جسديًا وبذلًا للمال، قد لا يتوفر أحدهما فتسقط الفريضة عن غير المستطيع.

كما أنّ الدروس والعبر التي يستشعرها الحاجّ عند أدائه المناسك تجعله أكثر إيمانًا وتمسّكًا بشرع الله عزّ وجلّ، ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمّه»[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سئل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قيل: ثمّ ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قيل: ثمّ ماذا؟ قال: «حجّ مبرور» أي حج ليس فيه معصية[2].

في الحجّ يجتمع المسلمون من شتى أقطار العالم على كلمة واحدة: «لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْك، لَبَّيْك لا شريك لك لَبَّيْك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»؛ ففي هذه التلبية التي يكرّرها الحجاج كثيرًا خلال أدائهم للمناسك: توحيد لله وتنزيه له عن الشريك، وإقرار بالربوبيّة وبالنعمة، وحمد لله على ذلك. وفي هذه المعاني الثلاثة يكمن لبّ الإيمان بالله. فإذا تخطّت هذه الكلمات القول باللسان، ووقرت في قلب الإنسان، شكّلت بحقّ ولادته الجديدة، وانطلاقته في الحياة من جديد، كيوم ولدته أمّه من دون ذنوب ومعاصٍ تثقل كاهله. وفي هذا فضل من الله ونعمة منّ بها على عباده.

ولقد خصّ الله يوم عرفة بفضل كبير جدًا، فهو أفضل يوم طلعت عليه

---

(١) - البخاري، الصحيح، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، ح ((١٤٢١)، ٦٣٩/٢ [واللفظ له].

- مسلم، الصحيح، كتاب الحج، باب في فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، ح (١٣٥٠/٤٣٨)، ٩٨٣/٢.

(٢) البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل، ح (٢٥)، ٧٥/١.

الشمس، «وما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة»[1] كما يقول المصطفى عليه السلام. فيه يجتمع الحجّاج شعثًا غبرًا، ليس عليهم ومعهم من حطام الدنيا سوى قطعتين من القماش الأبيض، يسترون بهما عوراتهم، ويدعون ربّهم بما شاؤوا، مؤمنين برحمته ويخافون عذابه. في تلك اللحظات يتجدّد إيمان العبد بربّه، ويقوى حين يرى هذا المنظر الفريد الذي يذكِّره بيوم الحشر الأكبر، حيث لا فرق بين الناس، كبيرهم وصغيرهم، غنيّهم وفقيرهم، ملكهم وخادمهم، كلّهم سواء، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود إلّا بالتقوى.

والحالة نفسها في الطواف حول الكعبة المشرّفة، والسعي بين الصفا والمروة، ففي الطواف تعظيم لهذا البيت العتيق، الذي هو أوّل بيت وضع للناس. وقصّة الفيل خير دليل على عظمة هذا البيت عند الله تعالى، حين توجّه إليه أبرهة يريد تدميره، فأرسل الله عليه طيرًا أبابيل، جعلت الفيل الكبير وجنود أبرهة يتراجعون وينكفئون، ولا تزال كلمة عبدالمطلب «إنّ للبيت ربًّا يحميه»، تشكّل دلالة واضحة على مكانة هذا البيت حتى قبل الإسلام.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾ [الفيل: ١ – ٥].

كما أنّ في الطواف تذكرة ببناء هذا البيت على يدي نبيي الله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في هذه البقعة المقفرة التي لا بشر فيها ولا زرع بأمر من الله. وقد أمر الله إبراهيم أن يؤذِّن في الناس حتّى يأتوا إلى هذا المكان من كلّ فجّ عميق، وهذا ما يشهده جموع الحجيج اليوم وقد وصل أذان سيّدنا إبراهيم إلى الملايين من الناس في كلّ عام، فلبّوا نداءه.

وفي السعي بين الصفا والمروة نتذكّر قصّة الطفل إسماعيل وأمّه التي هرولت

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة، ح (١٣٤٨/٤٣٦)، ٢/ ٩٨٢.

بين التلَّتين الصغيرتين تفتّش لصغيرها عن ماء وطعام تسدّ بهما رمقه وقد تَوَكَّلَتْ على الله عندما تركهما إبراهيم عليه السلام، حيث قالت لزوجها: آللهُ أمرك بهذا؟ فأجابها: نعم، فقالت بلسان المؤمن المتوكّل: والله لن يضيعنا، فخرج ماء زمزم من بين قدمي الطفل الرضيع.

وفي رمي الجمرات دروس في التصدّي للشيطان الذي ظهر أمام سيّدنا إبراهيم عليه السلام عندما أمره ربّه أن يذبح ابنه، فبرز له الشيطان يريد أن يثنيه، فرجمه وواصل طريقه، ممتثلًا لأمر ربّه: ﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧ ﴾ [الصافات: ١٠٣ – ١٠٧]، وهل هناك أعظم من هذا الذبح العظيم المستمرّ إلى يوم الدين.

يروى أنّ عبد الله بن المبارك، وكان رجلًا من سادات الفقهاء والصالحين، قد حضر إلى مكّة حاجًا، فوقف يوم عرفة مع الواقفين يستغفر الله عزّ وجلّ ويبكي ويدعو. حتّى تعب ونعس فنام. فرأى في نومه اثنين من الملائكة يكلّم أحدهما الآخر، قال الأوّل: كم عدد الحجيج هذا العام؟ قال الثاني: ستون ألفًا. ثمّ قال الأوّل: وكم عدد الذين قَبِلَ الله منهم وغفر لهم؟ قال الثاني: ستة. استيقظ عبد الله من غفوته باكيًا، وجلس يدعو ويستغفر ويبكي، ويقول لنفسه: هل سأكون أحد هؤلاء الستّة ومن أنا لأكون أحدهم؟! ثمّ يتابع دعاءه واستغفاره وبكاءه حتى غلبه النعاس فرأى الملكين يتابعان حديثهما، قال الأوّل: وماذا فعل الله بباقي الحجيج؟ قال الثاني: أكرمهم وغفر لهم وقَبِلَ منهم إكرامًا لهؤلاء الستة!

وقد ورد في الأثر عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: «كنت جالسًا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في مسجد منى، فأتاه رجل من الأنصار، ورجل من ثقيف، فسلّما ثمّ قالا: يا رسول الله، جئنا نسألك، فقال إن شئتما أخبركما بما جئتما تسألاني عنه فعلت، وإن شئتما أن أمسك وتسألاني فعلت، فقالا: أخبرنا يا رسول الله فقال الثقفي للأنصاري، سل، فقال: أخبرني يا رسول الله، فقال: جئتني

تسألني عن مخرجك من بيتك تؤُمُّ البيت الحرام وما لك فيه، وعن ركعتيك بعد الطواف وما لك فيهما، وعن طوافك بين الصفا والمروة وما لك فيه، وعن وقوفك عشيّة عرفة وما لك فيه، وعن رميك الجمار، وما لك فيه، وعن نحرك وما لك فيه مع الإفاضة. فقال: والذي بعثك بالحق لعنْ هذا جئت أسألك. قال: فإنّك إذا خرجت من بيتك تؤمّ البيت الحرام لا تضع ناقتك خفًا ولا ترفعه إلّا كتب الله لك حسنة ومحا عنك خطيئة؛ وأمّا ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بني إسماعيل عليه السلام؛ وأمّا طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة؛ وأمّا وقوفك عشيّة عرفة فإنّ الله يهبط إلى السماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة، يقول: عبادي جاؤوني شعثًا من كلّ فجّ عميق، يرجون جنّتي، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو كقطر المطر أو كزبد البحر، لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفورًا لكم ولمن شفعتم له؛ وأمّا رميك الجمار فلك بكلّ حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات؛ وأمّا نحرك فمذخور لك من ربّك، وأمّا حلاقك رأسك فلك بكلّ شعرة حلقتها حسنة، ويُمحي عنك بها خطيئة؛ وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنّك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك حتى يضع يديه بين كتفيك، فيقول اعمل في ما تستقبل فقد غفر لك ما مضى».

كلّ هذه الدروس والعبر يتذكّرها الإنسان الذي تبدأ حياته من جديد بعد أداء الحج المبرور، فإذا اتّعظ منها وتدبّر، كانت له انطلاقة جديدة في حياته، ولذلك كان الحج نعمة كبيرة جدًا من نعم الله علينا، لأنّه يشكّل منعطفًا كبيرًا في حياة المسلم، وفي التزامه بأوامر ربّه، وصفحة جديدة في علاقته به سبحانه والانتهاء عن نواهيه.

نعمة الدعاء

من نعم الله علينا أن شرع لنا الدعاء، وأمرنا به ووعدنا بالإجابة، كما توعّد المستكبرين المعاندين بعذاب كبير: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [غافر - ٦٠].

ومن نعمه علينا في الدعاء أنّه تعالى قريب منا يسمع دعاءنا ويستجيب لنا كما ورد في الآية الكريمة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة - ١٨٦].

وقد قال العلماء في هذه الآية إنّ الله استثناها من جميع الآيات التي ورد فيها السؤال إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، حيث كان الخطاب يوجّه إلى النبيّ مباشرة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم ﴾ [الكهف: ٨٣]، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٠]؛ بينما في هذه الآية فقط، جاء الخطاب مباشرة إلى المؤمنين. كما جعل الدعاء من العبادة بل هو لبُّها، وهو طريق الهداية إلى الرشد.

عن أبي موسى الأشعري قال: كنّا مع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في غزاة، فلمّا قفلنا أشرفنا على المدينة فكبّر الناس تكبيرة ورفعوا بها أصواتهم فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إنّ ربّكم ليس بأصمّ ولا غائب، هو بينكم وبين رؤوس رحالكم» [ثمّ قال: «يا عبد الله بن قيس، ألا أعلّمك كنزًا من كنوز الجنّة، لا حول ولا قوة إلّا بالله»] [(١)]. ويقول تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٥]، وهذه أيضًا من نعم الله علينا في الدعاء، حيث

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، ح (٣٤٦١)، ٥٠٩/٥.

إنّه أمرنا بالتضرّع وعدم التكلّف، يقول صلّى الله عليه وسلّم: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء»[١]. ومن التكلّف في الدعاء مثلًا السجع، وتنميق اللفظ، وغير ذلك ممّا يصرف العبد الداعي عن التفكّر في جوهر الدعاء إلى التفكّر في اختيار الكلمات والنغمات التي يخرج بها الدعاء. وقال أحد السلف الصالحين: «ادع بلسان الذلّة والافتقار، لا بلسان الفصاحة والانطلاق». فالبساطة في الدعاء والصدق فيه مع الله، والإقبال عليه، والطهارة من الآثام والمعاصي والذنوب، هي من آداب الدعاء التي لا بد من توفرها للإجابة.

يروى أنّ أحد السلف الصالحين مرّ برجل يدعو بسجع، فقال له: «أعلى الله تبالغ؟ أشهد أنّي رأيت حبيبًا العجمي يدعو وما يزيد على قوله: اللهمّ اجعلنا جيّدين، اللهمّ لا تفضحنا يوم القيامة، اللهمّ وفّقنا للخير، والناس يدعون من كلّ ناحية وراءه، وكان حبيب العجمي يعرف ببركة دعائه»[٢].

كما أنّ من نعم الله علينا في الدعاء أنّه غير مشروط بجاه أو سلطان، بل يتقبّله الله من عباده جميعًا، فـ «رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه»[٣].

يقول ابن المبارك: قدمت المدينة في عام شديد القحط، فخرج الناس يستسقون، فخرجت معهم؛ إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتان من خيش، وقد اتَّزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه، فجلس إلى جانبي، فسمعته يقول: «إلهي أَخْلَقَتِ الوجوهَ عندك كثرةُ الذنوب ومساوئُ الأعمال، وقد حَبَسْتَ عنّا غيث السماء، لتؤدِّبَ عبادك بذلك، فأسألك يا حليمًا ذا أناة، يا من لا يعرف عباده منه إلّا الجميل، أن تسقيهم الساعة الساعة، فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست

---

(١) – أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب الدعاء، ح (١٤٨٠)، ص ١٤٨٠.
– ابن ماجه، السنن، كتاب الدعاء، باب كراهية الاعتداء في الدعاء، ح (٣٨٦٤)، ١٢٧١/٢.

(٢) إحياء علوم الدين. الإمام أبو حامد الغزالي. دار ابن حزم. بيروت، ط١، ٢٠٠٥.

(٣) مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الضعفاء والخاملين، ح (١٣٨/ ٢٦٢٢)، ٢٠٢٤/٤.

السماء بالغمام وأقبل المطر من كلّ جانب»[١].

كما يروى أنّ نبيّ الله سليمان عليه السلام خرج يستسقي، فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها، رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: «اللهمّ إنّا خلق من خلقك، ولا غنى بنا عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا»، فقال سليمان عليه السلام لمن معه: «إرجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»، أي النملة.

فسبحان الذي يضع سرّ قبوله الدعاء أحيانًا في أضعف خلقه.

ومن نعم الله علينا في الدعاء وآدابه وشروط إجابته، أنّه يحثّ على تربية المجتمع على الخير والفضيلة، وعلى ترك الشرور والآثام، حيث يروى عن كعب الأحبار أنّه قال: «أصاب الناس قحطٌ شديد على عهد موسى عليه السلام، فخرج موسى ببني إسرائيل يستسقي بهم، فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرّات، ولم يسقوا. فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «إنّي لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمّام»، فقال موسى: يا ربّ ومن هو حتى نخرجه من بيننا؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: «أنهاكم عن النميمة وأكون نمّامًا!»؛ فقال موسى لبني إسرائيل: توبوا إلى ربّكم بأجمعكم عن النميمة، فتابوا؛ فأرسل الله تعالى عليهم الغيث».

وقال سفيان الثوري: «بلغني أنّ بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتّى أكلوا الميتة من المزابل، وأكلوا الأطفال، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرّعون، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى أنبيائهم عليهم السلام: لو مشيتم إليّ بأقدامكم حتّى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عنان السماء، وتكلّ ألسنتكم عن الدعاء، فإنّي لا أجيب لكم داعيًا، ولا أرحم لكم باكيًا، حتّى تردّوا المظالم إلى أهلها. ففعلوا فمُطروا من يومهم».

ودعاء المسلم لأخيه المسلم بظهر الغيب، أي في غياب المدعو له وفي سرّه، فيه خير كثير، وحثّ على التكافل والتضامن بين المسلمين، فقد ورد عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كان يقول: «دعوة المرء

---

(١) إحياء علوم الدين. الإمام أبو حامد الغزالي. دار ابن حزم. بيروت، ط١، ٢٠٠٥.

المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلّما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به آمين، ولك بمثل»[١] أي ولك مثل ذلك.

ومن المستحبّ إخفاء الدعاء: يقول ابن القيّم رحمه الله:

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أولًا: أنّه أعظم إيمانًا.

ثانيًا: أنّه أعظم في الأدب والتعظيم.

ثالثًا: أنّه أبلغ في التضرّع والخشوع.

رابعًا: أنّه أبلغ في الإخلاص.

خامسًا: أنّه أبلغ في جمع القلب على الله.

سادسًا: أنّه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال.

ومن نعم الدعاء وفضائله علينا، أنّه تذكير وتأكيد لعبوديّة الداعي نحو خالقه وبارئه، وتأكيد من الله عزّ وجلّ بخلافة الإنسان على الأرض، ولعلّ في هذا الترابط الوثيق سرّ نجاح الإنسان في عمارة الأرض، وسرّ سعادته في الدنيا والآخرة، حيث يقول ربّ العالمين: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾** ﴾ **[النمل: ٦٢].** والدعاء أيضًا وسيلة للتواصل الدائم بين البشر وخالقهم، في كلّ الأوضاع والأحوال، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، وفي كلّ الأوقات والأزمنة، وأمام كلّ الصعوبات والخيارات التي تعترض حياتهم اليوميّة. وقد وعدنا الله تعالى بالقبول والإجابة، وكشف السوء، وتلبية الحاجات وقضائها.

كما أوصى النبيّ عليه الصلاة والسلام بعدم الاستعجال في الدعاء حيث يقول: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل»، قيل

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء المسلمين بظهر الغيب، ح (٢٧٣٣/٨٨)، ٤/٢٠٩٤.

يا رسول الله: وما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أرَ يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدَع الدعاء»[١].

وفي حديث آخر أنّه عليه الصلاة والسلام قال: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلّا آتاه الله إيّاها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدْع بإثم، أو قطيعة رحم»[٢]. وفي هذا الحديث وعد قاطع بالإجابة في الدعوة عينها، أو بصرف السوء بمثلها، وفي ذلك خير ونعمة من الله، فهو لا يردّ الداعي صفر اليدين أبدًا، لأنّه عاهد كلّ من سأله بأنّه قريب يجيب دعوتهم.

لذلك يقول العلماء: «أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»، وفي هذا طمأنة كبيرة للداعي وتخفيف عمّا نزل به حتى قبل الإجابة، لأنّ اليقين بكمال قدرة الله كما الإيمان بوعد الله بالإجابة يجعل المسلم في راحة نفسيّة، فلا يحزن ولا يقلق، لأنّه يعلم أنّ هذا ابتلاء ليزيد من لجوئه إلى ربّه، ومن سؤاله إياه ومن إيمانه به، فالمصيبة دائمًا تعيد الإنسان إلى ذكر ربّه وتجعله أكثر تعلقًا به.

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب بيان أنّه يستجيب للداعي ما لم يعجل فيقول: دعوت فلم يستجيب لي، ح (٢٧٣٥/٩٢)، ٢٠٩٦/٤.

(٢) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب الدعوات، باب في انتظار الفرج وغير ذلك، ح (٣٥٧٣)، ٥٦٦/٥ [قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب].